ناصر قنديل

بالكلام عن تونس الخضراء وثروتها القومية الثقافية وحضور «الاتحاد التونسي للشغل» الوازن فيها، نبدأ «حديث الجمعة» هذا الأسبوع. ثمّ تطالعنا الصباحات بجميل الكلمات عن مواقف وأحداث على مدى سبعة أيام، فالزوايا الأساسية من «قالت له» و«رياضيات في الكلام»، إلى المشاركات الفعّالة من ضيوف أعزّاء أضحوا شركاء.

مختصر مفيد *

تونس الخصوصية... بارومتر الشارع العربي وطليعته

● منذ زمن طويل، لي نظرة خاصة لتونس وما تمثّله في تركيبها السياسي والثقافي وبنية مؤسسات الاجتماع السياسي فيها، تضعها عندي في مكانة خاصة وتجعلني أتابع ما يجري فيها من حراك، وما يطفو على سطحها الثقافي والسياسي بعناية. فتونس البلد العربي الصغير كلبنان والكويت والبحرين، تتشارك مع هذه البلدان بمجموعة ميزات وتتفوّق عليها بأخرى. ففي هذا الرباعي العربي مساحة لحرية الصحافة نادرة في ما عداها بعيداً عن تفسير الأسباب المشتركة والمنفصلة لكل منها. وفيها كانت في الستينيات والسبعينيات مكانة لهذه الصحافة في الحياة السياسية والثقافية، ودرجة لا يُستهان بها من التعدّدية التي تتيح للكتّاب والمثقفين تشكيل رأي عام نقديّ بنسبة عالية.

● في هذا الرباعي العربي تونس والبحرين والكويت ولبنان، نقابات عريقة ووازنة ولها مكانتها في السياسة والنضال الاجتماعي، وواكبت الحركة القومية والمدنية سواء بسواء. ففي تونس يتصدّر «الاتحاد العام التونسي للشغل» حركة نقابية وقومية ووطنية ومدنية واسعة نطاق التأثير، شريكاً دائماً للحكومة في صناعة التوازنات. وفي البحرين نقابات عمالية ذات عراقة نضالية تشهد بها الخمسينيات والستينيات في مرحلة الصعود الناصري، ومثلها في الكويت عندما تعرّضت مصر للعدوان الثلاثي كانت في طليعة الذين قرّروا مقاطعة السفن والبضائع الفرنسية والبريطانية. وفي لبنان كانت الحركة الطالبية في الستينيات رائداً نضالياً ونقابياً وصانعاً للسياسة.

● في هذا الرباعي كانت البرلمانات دائماً على درجة من التمايز عن الحكم وكانت على درجة موازية من التعدد ومن الصوت المسموع والحضور إلى حد شكلت اللعبة البرلمانية فيها، مظهراً بارزاً في الحياة السياسية. ما استدعى حل برلمانات في الكويت والبحرين مراراً وتعليق العمل بالدستور. واستدعى في لبنان عبثاً بالدستور لضمان التلاعب بالدور الديمقراطي للبرلمان وفي تونس اللجوء إلى الاعتقال والنفي والاغتيال لرموز برلمانية في الماضي والحاضر، تعطيلاً للبرلمان كمؤسسة قادرة على صناعة التغيير. لكن رغم كل شيء، بقيت الحياة البرلمانية في بلدان هذا الرباعي نموذجاً متقدّماً في حياة برلمانية جافة وباهتة في سواها من البلدان العربية إذا وجدت.

● تونس ليست الكويت، حيث عطّل النفط مسارات التغيير، وأنشأ أرضية مالية لولادة طبقة طفيلية تعتاش على الموارد النفطية بمعزل عن العلاقة بالإنتاج والمجتمع، ولتُنشئ بدورها حولها حاشية من المستفيدين والمريدين بفائض مالي هائل عطل البرلمان والصحافة وحوّلهما مساحات للترف السياسي والفكري، فجاءت التيارات الدينية في مراحل النهوض الإسلامي ما بعد تراجع الحركة القومية واليسارية وبعد انتصار الثورة الإيرانية وصعود المقاومة في لبنان وفلسطين تحت عناوين إسلامية لتعبّر عن هذا الترف أيضاً. وتونس ليست البحرين، حيث عطّلت المذهبية ديناميات النهوض الثقافي والسياسي، رغم عدم وجود موارد نفطية تعطّل الحراك السياسي والثقافي، لتتشكل الأقفال المانعة من التغيير من المذهبية في التكوين الديمغرافي للمجتمع من جهة، والوقوع بين فكّي كماشة جيرتها لكل من السعودية وتطلعاتها للهيمنة وقلقها من عدوى التغيير من جهة، وإيران وصعودها كقوة إقليمية وزانة من جهة أخرى، وانعكاس التجاذب بينهما على الحال المذهبية لتعطيل مفاتيح التغيير في المجتمع البحريني. وتونس ليست لبنان حيث فرضت الطائفية حضورها في استيلاد نظام سياسي قائم على الفساد في إعادة تكوين السلطات من جهة، وضرورات السلم الأهلي في خيارات المقاومة وما تستتبعه من تنازلات داخلية من جهة ثانية، وما رتّبه وجود المقاومة ونهوض مكانتها الإقليمية والاستراتيجية من تدفق استثمارات دولية وإقليمية في النظام الطائفي مالياً وسياسياً بهدف محاصرة المقاومة، فتم تجفيف الكثير من موارد التغيير، ليقع المجتمع أسيراً لمعادلات الركود السياسي والثقافي، رغم علوّ الضجيج وارتفاع الصراخ فيه.

● في تونس، لا مكابح كافية لمنع التغيير، ولا لتعليب الرأي العام، فالتيار الديني في تونس مختلف، وخاص، سواء بميراث مشايخ الزيتونة الذين كانوا أول من رفض طروحات الوهابية بشجاعة ووضوح، أو حتى بالنسخة المنقحة للأخوان المسلمين التي تمثلها حركة النهضة التي تسعى دائماً إلى التماشي مع معايير من الديمقراطية والعصرنة والمدنية لا تقيم لها الحساب سائر التشكيلات الإسلامية وسواها، عدا عن حرص على خصوصية تتصل بالقضية الفلسطينية، تعلو وتهبط وفقاً لمزاج الشارع التونسي الذي تحرص النهضة على عدم خسارتها مكانتها فيه وتبدي مرونة عالية في التواؤم مع متطلبات ذلك، من دون أن يعني هذا غياب التيارات التكفيرية، بل وجود حضور قوي لها لم ينجح بفرضها شريكاً في الحياة الثقافية والسياسية بقدر ما جعلها مصدراً للمقاتلين إلى الخارج، والطائفية والمذهبية لا تشكلان همّاً تونسياً رغم تلوين نسبي للنسيج الاجتماعي، لكنه غير كاف لطرح الطائفية والمذهبية كإشكالية. لكن في تونس لا نفط ولا استثمار خارجياً سخياً على الجغرافيا السياسية، بل اقتصاد حقيقي وطبيعي يستند إلى دورة تتقدم وتتراجع وتنجح وتفشل وتصاب وتصيب، فتلعب دورها المحوري في صناعة الأرضية الملازمة لتوليد المواقع والمواقف والأدوار.

● في تونس ثروة قومية وثقافية وحضور وازن لمؤسسة عريقة هي «الاتحاد التونسي للشغل» يشكل ميزة تونسية استثنائية يفسر الكثير من التميّز التونسي، وما جرى حول تصنيف المقاومة إرهاباً وما يجري في الحرب على الإرهاب، يقولان إن تونس، كما كانت البداية في رياح التغيير التي تمت سرقتها في ما عرف بـ«الربيع العربي»، وكانت البداية في التصحيح، هي البداية في زمن عربي جديد تسقط فيه الفتنة المذهبية وتستردّ فلسطين مكانتها والمقاومة تألقها، والديمقراطية معناها، والحرب على الإرهاب تجد فيها ساحتها.

● تونس التي كانت أول من قطع العلاقات العربية بسورية كانت أوّل من تشجع على إعادتها، ولهذا معنى كبير.

ناصر قنديل

*ينشر هذا المقال بالتزامن مع الزميلتين «الشروق» التونسية و«الثورة» السورية.

صباحات

● خلق الله المرأة وردة تفوح عطراً. وخلق الرجل شوكاً ليحميها لا ليدميها. صباحكم أمّ وأخت وزوجة وبنت وحبيبة وصديقة... صباحكم ورد يفوح عطراً في يوم المراة العالمي. أجمل التحايا لأجمل ورد وعطر في حياتكم.

ـ نجوى قاسم تسأل جوني عبده ـ مدير الاستخبارات السابق ـ على قناة «العربية»: «لماذا يُترَك حزب الله يتصرّف كالطاووس؟». فيجيب: «لأننا تعلّمنا الحكمة من ملوك السعودية».

واليوم، ذكرى يحييها أهالي بئر العبد لتفجير سقط فيه مئة شهيد ومئتا جريح عام 1985، استهدف سماحة السيد محمد حسين فضل الله رحمه الله بفضل حكمة جوني عبده وبندر بن سلطان لحساب «إسرائيل».

● رجال مثل هوغو شافيز صعب أن يتكرّروا... شهوداً للحق شهداء للحرّية!

● عندما يقول رجل لامرأة «يا حياتي»، فكم ينفق من حياته التي تتشكّل من مجموع أيام وساعات ودقائق ليُدخل الفرح إلى قلبها؟ سؤال لمناسبة عيد المرأة العالمي. لتكن كلماتنا بحجم أفعالنا. كلمة «حبيبي» أقلّ كلفة رغم أنها أشدّ صعوبة لدى بعض الرجال.

● نور الضوء يغيّر في مزاج الورود والشجر، ويغيّر في تلقّي التربة للبذار. فما عساه يفعل في حياة البشر؟ وهل لتلقّي النور في العيون تعريف بمكانة العين في صناعة الفرح والجمال والتفاؤل؟ ولكونها المفتاح الأهم لتلقّي المعلومات والمؤثرات بالمنزلة بين سائر الحواس لأنها تتلقّى الجمال الذي لا يتلقاه سواها مثلها، فتقدّمت بتذوّقه على ما سواها، وأتقنت التعدّد والتنوّع من تنوّع الألوان والأشكال وتعدّدها، بعلاقتها بالضوء. صباحكم خير وحبّ وجمال.

● العادات يكتسبها البشر إما بالتقليد أو بالتكرار أو بالإصرار. والتقليد أعمى والتكرار جاهل، أما الإصرار فواعٍ. وعندما نراقب عادات الناس ونعرف أنّ مصدرها التقليد، نعرف أثر التربية، والبيئة صالحها وطالحها. وعندما نعرف أنّ المصدر هو التكرار، نعرف ميول النفس للتقبّل نحو النشاط والخير، أو نحو الكسل والسوء. أما عندما يكون الإصرار مصدر العادات، فهي نتاج العزم ولا تنتج إلا متطرّفين في الخير كما في الشرّ. صادقوا من تكتشفون أنّ عاداته مكرّسة للخير والنشاط والنخوة، وفضّلوا بينهم مَن بدأت عاداته بالتقليد وتكرّست بالتكرار وتميّزت بالإصرار، فجمعت الفطرة للتربية والبيئة إلى القبول والعزم.

● حبّ الجمال ينفصل عن حبّ الرجل والمرأة، وحبّ التضحية ينفصل عن حبّ المواطن للوطن. وحبّ الخير ينفصل عن حبّ الناس للمجتمع. ابحثوا عمّن اجتمعت فيه هذه الخصال، ولا تَدَعوه خارج حياتكم.

نقطة عَ السطر

ـ بتعرف شو أهم سبب للتخلّف عنّا؟
ـ شو؟
ـ يا سيدي السبب الأساسي هو تجذّر الثيوقراطية بمجتمعنا. وهالأمر بالذات أدّى إلى حالة من الانفصام بالمجتمع، ناتجة عن تواري البراغماتية. وهالأمر انعكس سلباً لأنه أنتج من جهة حالة نرجسية نتيجة التمسّك بالأنا الضيّقة، ومن جهة حالة من الشوفانية المرضية
ـ خيّي فيك تحكيني عربي؟
ـ لك يا أخي ببساطة لما تسود الديغماتية بيصير من الصعب التوصّل لحلّ، خصوصاً مع انتشار الديماغوجية. ونحنا عَ أبواب انتخابات. شوف بقى على الميكافيليين!
ـ خيّي يسترعَ عرضك، كم كلمة عربي تا إفهم!
ـ لك آخ... يا أخي هيك الواقع، نحنا مش عايشين بيوتوبيا.
ـ بتعرف؟ أنا اكتشفت إنه ما إلي مصلحة إعرف أسباب التخلّف. حطّلي نقطة عَ السطر لو سمحت

(الثيوقراطية: حكم رجال الدين. الميكافيلية: المبدأ النفعي. البراغماتية: الواقعية، النرجسية: عشق الذات. الشوفونية: الغلوّ في حبّ الوطن. الديماغوجية: سياسة تملّق الشعب. الديغماتية: التعصّب الشديد للرأي. يوتوبيا: المدينة الفاضلة).

منى عبد الكريم

بؤساء الحرب

ارتحل بريق الطفولة، وتشرّد نبضها من قلب الحياة. قابعة في قاع الخراب والدمار. تلك النظرات العابرة فوق جسور الوجع تنهال بدموع اعتصرها لهيب الاحتراق.

ساءت حال الطفولة، وسكنها الألم والشقاء. فالحياة شبيهة العدم، والعذاب أبلغ اللغات. على ضفاف الموت تكسّرت أغصان البراءة الغضّة، وصارت الأحلام بوحاً خجولاً يتلعثم بواقع مرير يتسكّع بين الحطام. اخترق الزمن جدار العمر فتفجّر الشيب وشاخت الطفولة خوفاً وقلقاً، قبل أن تتذوّق طعم الحياة!

فكيف الاهتداء إلى دروب الخلاص؟

كيف الاهتداء والتراب صار روحاً حيّة نسجتها قطرات الدماء؟

والأرواح الحية من كثرة مشاهد الموت تناثرت قهراً وحسرة بين حبات التراب. كبرت الطفولة المعذبة وصارت تسأل: ما دامت الحياة فانية، لماذا كلّ هذا الاقتتال؟ وما دام الدين هو الحجّة، فلماذا كلّ هذا الانفصال عن الله والالتصاق بكلّ ما هو إلا زوال؟

أنا الطفولة المعذّبة تقرصنت طفولتي وتفحّم قلبي لا قضاء ولا قدراً، إنما استوقفتني محطّات الغدر والأحزان. أنا الطفولة المعذّبة أزهاراً بلا ألوان. أنا حروف الصمت في فضاء لا تُسمع فيه إلا أصوات الغارات. والوجع تعجز عن وصفه الحواس. والنفس تتوق لأن يكسوها ثوب الدفء والأمان.

أنا الطفولة المنفية والمنبوذة والمقتولة بقنابل الحقد، لكن كلّي كبرياء. سأبقى أرسم على الرمال خريطة الحياة لو كانت مجرّد خربشات. سأبقى أعزف لحن السلام وإن كان موسيقى بلا أنغام. وكما عانيت الفراق، سأحتفظ بأمل اللقاء. وإن كان كنباتات الصحراء!

سأعيش طفولتي في ذاكرة الأحلام وسأنتظر الشموس لتلوح في أفقي مهما تزاحمت غيوم الظلام. سأحاول أن أبتسم يوماً وإن صارت طفولتي حكاية في كتاب البؤساء!

سناء أسعد

رياضيات في الكلام

● ما كان لكم وللناس معكم، أعطوا الناس ما لهم وخذوا ما لكم. وما كان للناس ولكم، دعوه للناس، فإن قرّر الناس إعطاءكم ما لكم... تأخذونه.

● مَن يبحث عن الخير يتعب حتى يراه مرّة. ومَن يبحث عن الشرّ يلقاه أمامه كلّ مرّة.

● الطريق الذي تسلكه للذهاب بيُسر، يصلح للإياب. فلا تبحث عن غيره. ومَن يبحث يريد المتاعب في التجارب لأنه مترف لا صاحب هدف وحاجة وقضية.

● الطقس للطبيعة كالمزاج للبشر. فتحمّلوا أمزجة من تحبّون كما تتحمّلون تقلّبات الطقس.

قالت له

قالت له: هل من حدود بين الحبّ والحرّية؟ وهل يجتمعان؟

فقال لها: الحبّ تنازُل ضمنيّ عن بعض من الحرّية، وكسب مقابل المزيد منها. فالحبّ بذاته قيد وطريق حرية، والأمر يتّعلق بالحبيبين وفهمهما للحبّ وللحبيب. فمن المحبّين من يظنّ الحبّ تملّكاً للآخر وحرّيته، ومنهم مَن يرى سعادته برؤية فرح الحبيب وحبّه للحرية، ولو لم يبادله السعي نفسه والقبول ذاته. وهكذا يكون الحبّ تبادلاً بلا مساواة وبلا عدالة. فلماذا السؤال عن الحرّية وتجاهل العدالة كمعيار للتبادل؟

فقالت له: لكن المرأة تختلط عندها الصورة بين الحبّ والتملّك للحبيب. وتريد من الحبيب أن يبادلها بالجمع بين الحبّ والمزيد من الحرّية لها. لكن الرجل يختلط عنده الحبّ بحرّية يمارسها من وراء ظهر المرأة، وتملّكه لها يمارسه بداعي العدالة.

فقال لها: إذن، يجتمع الرجل والمرأة على مفهوم للحبّ يقيم العدالة بين الحرّية والتملّك بالتبادل والتوازي.

قالت له: إن كان هذا هو المفهوم الذي تريده بيننا فأنا أعجز عن إقامة التوازن الذي تريده، ولا أظنك تقدر ولو ادّعيت العكس. فستفعل ما يستقيم لك في سرّك وأنا أفعل ما أريده في العلن، وننتهي بخلاف أخرُجُ فيه مدانةً بجرم مخالفة القواعد. فتعال نتفق على إضافة معيار للعدالة مع الحرّية والتملّك العلنية.

فقال لها: تتغلبين بالعلنية وأتغلب بالعدالة.

فتعانقا ومضيا في طريقهما معاً بلا اتفاق ولا خلاف.

ورد وشوك

حظيت بمصباح هدية. فتبادرت إلى ذهني حكايات من الطفولة، منها حكاية مصباح علاء الدين. ضحكت بسعادة، يغلبني شوق وحنين لزمن جميل.

أمسكت المصباح، ومسحته بلطف شديد. فإذ بدخان يتصاعد ومعه المارد الضخم. تسمّرت في مكاني، والدهشة لفّت لساني! و صوت المارد يناديني: «شبّيك لبيك لك ما تطلبين».

تحاملت على نفسي وقهرت خوفي وقلت له بصوت متقطّع حزين: «أيّها المارد العظيم، تأذّت الطفولة في بلدي على إثر عدوان أثيم. بكت عيون الأمهات دماً وتسلّل اليأس إلى نفوس الشباب والشابات. والياسمين ضاع عطره بين رائحة البارود وغبار الهدم والخراب العميم. أطلب أن تعيد طفولة بريئة إلى الأطفال، والأمل المضيء إلى الشباب، وإلى الياسمين عبقه، والماضي المجيد إلى وطن ساحر لا مثيل له.

وفجأة، تنبهّت لأمّي وهي تطلب منّي أن أمسك فنجان قهوتي. وضعت المصباح إلى جانبي وبدأت احتساء القهوة مردّدة: «جميلة هي أحلام اليقظة، خصوصاً عندما نشعر أنها بدأت تتحقّق مع فجر يوم جديد».

رشا مارديني

إلى رجل

لم أستطع أن أكتب فيك
كلمة شعر واحدة
لا شعر لوم أو عتب
لا شعر حزن أو تعب
صارت مشاعري باردة
لم أستطع أن أكتب فيك
بيتاً واحداً
أو حتى حرفاً واعداً

القوافي كلّها جامدة
لم أستطع في الشعر أن أهجوك
أو حتى أن أرثيك
أن أرسل بوحاً إليك
حتى لو كان محايداً
حاولت كثيراً أن أبكيك
أن تضحك منك وعليك
لكن من دون فائدة

فكلّ ما أكتب سيذهب هباء
لِمَ أكلّف نفسي هذا العناء
لأجل عيون جاحدة؟
فأنت عقيم لا تليق بالقلم
ولن أصرف لأجلك حبر الندم
ولا تليق بالورقة البيضاء
الزاهدة!

توما عبّاس

شذرات

ربما تسحب الليالي ذكرياتنا الجميلة التي تنثال من بقايا روحنا الماضية. وبلحظات حنين خاطفة، نفتح أعيننا بين سياج الحاضر على دروب غبار الماضي الذي يتوّجه الألم. وربما الحبّ الدامي، الحبّ الكاذب، أسطورة نبتدعها، نعيش شخصياتها لمجرد أنها راقت لنا يوماً. نعيش ذكرى الأمس وذكرى ما نحيا، وذكريات مستقبل قادم، من ضباب يلمسه خيالنا، ينعشه قلبنا، وترويه أفكارنا إلى أن يكبر ويلبّي أملاً، يلقّننا دروساً لن ننساها ما حيينا.

سرقت من ساعاتي لحظات. طويت يدي إلى ركبتي وأغمضت عينيّ وتمتم قلبي كلمات لم أفهمها، لا تشبه شخصيتي ولا جنون أفكاري. وقفت إلى نافذة غرفتي، تناهى نظري إلى سماء كللتها نجوم تعالت برفعتها. تمنيت لو أطالها، أجلس على غيمة أراقب عالما، أبتعد عن تخبط الحياة قليلاً لتستقرّ أفكاري الهائجة كبحر أضاع موجه.

(لا أريد أن يروني هكذا، أريد أن أكون، أريد المزيد. والجملة التي ترافقني دائماً لا يعجبني ما أنا عليه، أسعى إلى المزيد والأكثر ولا يكفيني الارتواء)، وأبحث دائماً عن الحل. لكنني أجهل المشكلة، أجهل ما بي. سعادتي تلخّص بكتاب، بقلم، وبنجاح يدركه تعبي. فالفشل يرعبني، يخيفني، يُفقدني ثقتي التي تبني لي بداية جديدة، ربما لنجاح أو لقطف ثمار فشلي بإرادة أقوى. تنتهي أيامي لأبعثر ما يجول في خاطري، كلمات أكتبها لي على سطوري.

مريم علّوش

جرم ممنوع

كعاصفة تنكّرت للسماء
لا تعرف طريقاً
اجتحت القلب
فاختفيت ويا لعجبي
بين الضلوع
أواه أيها العشق
تبكينا من فرح
نبتسم من وجع
جداول تبحث عن أمهات
الشطآن
أزهار ترتعد ململمة وجهها
أخافَها حفيف الرحيل

حذار الرجوع
من بعدك لا ناي يبوح
وأحرفي عارية من ربيعها
كم كساها الشوق متلبساً
بالحنين
وكم أعدنا كتابة تاريخ أوّل
قبلة على الجبين
للحبّ ساحات لهو
ومحراب خشوع
هكذا نستقبل الحبّ
بملء الحياة
وكثير من الدهشة

وقليل من الصبر
فتركنا لشغف العيون نتوه
ولهمس الشفاه حين تصغر
الوجوه
ويتسربل النبض مغشيّاً
توقف...
فليس من هيام يدوم
وإن بكيته أنهاراً من دم ودموع
كأنما العشق
هو الجرم الأوّل والأخير
الوحيد الممنوع!

هيام عكاري

أنا وأنت

قاربٌ صغير بالكاد يقوى على تحمّل الأمواج. رحلة الموت إلى الحياة مليئة بالاستسلام، صرخات نصف مكتومة ورائحة الهلاك. تتشبّث أجسادنا عبثاً بالظلام. نظرت إليك لأستمد الأمان. عيناك غاضبتان ترمقانني بحقد وازدراء! لم أعرف ماذا أقول؟ احترقت عندئذ الكلمات.

فجأةً، لمعت نجمة الأمل في يابسة قادتنا إلى الحياة. وكان هذا انتصار.

في كلّ مساء، بخبث وبلا تعب، تضرب أوراق الأشجار المتطفّلة على زجاج النافذة. لتهمس بعدئذٍ بقايا الرياح: «أيها النازحون من طيف الطفولة، هل هدأت أرواحكم الحالمة؟».

برعشة امتزاج الثلج بالنار، أرمقك نائماً على السرير. وأتذكر الكراهية في عينيك. مَن منّا الأسواء حالاً؟ أنت الذي يخنقه وعدٌ قطعه قبل سنين؟ أم أنا التي تسمح للألم بالتغلغل بقوة في الأحشاء؟

ينام الحبّ بيننا في سُبات. ويرشدنا النسيان إلى المقلب الآخر من الحياة مع كلّ صباح.

رانيا الصوص